# نـــوافذ مغلقـــة

رشـــا ماهـــر(*)

## أ. تقديـــم

خُلـــق الإنـــسان وخُلقت الأفكار لتخدمه، وتساعد في صنع عالم أفضل له، خلقت الأفكار لينمو بها ومنها الإنسان، ليتحرك ويحيا لا أن يتجمد ويتعبدها...

فالـــسواد الأعظم من البشر ينشأون في بيئةٍ ذات أنساق ثقافية، واجتماعية، وحضارية معينة، يتشربونها فتتوغل داخل سرائرهم، يتلونون بلونها، وتضحي طابعًا وجزءًا من الكيان...

وحيـــنما يمتصون تلك الأفكار، وتضحى لبنة أساسية من تكوينهم الداخلي، يـــصعب الخروج عليها ورؤيتها؛ فهل يستطيع المرء أن يرى نفسه اللهم أمام المرآة؟؟ وهل أمامها يرى نفسه حقًا؟!

بـــل والأخطـــر مـــن ذلـــك أن الإنـــسان حينما **يعتاد** تلك الأفكار بالسماع والممارســـة، فإنـــه مع مضي الوقت يصبغها بصبغة "**القداسة**"، أي تتحول من دائـــرة "العـــادة والتقليد"، إلى دائرة "المحرمات"، من دائرة الشد والجذب، إلى دائرة الطاعة التامة..

---

(*). باحثة ماجستير-بقسم الفلسفة- آداب القاهرة.

## ٣. لمحة بنائية

وبــوق الخطــر هذا لم يدو منذ وقت قريب، بل منذ أمدٍ بعيد، لدرجة أننا أضحينا لا نسمعه!! ففي العصور القديمة، كان الإنسان البدائي يحيا في العراء، وبمتابعته وتأمله للكائنات الأخرى، واستخدام ذكائه الفطري، اكتشف الكهوف، ووعي معني الحماية والآمان.. ثم توالت السنين وتكونت "الأسر"، و"العشائر"، و"القبائل"،..... وعلى رأس كل منها قائدان، داخلي وخارجي، أم وأب، وبحكم "العــادة" يخضع الأول للثاني؛ فحينما تم تقسيم الأعمال أضحت الأم –أو المرأة بــشكل عــام– في الداخل خوفًا عليها من الوحوش، ولقوة سواعد الأب – أو الرجل– فهذا العمل مناسب لها، ويزيد من حمايتها.

لكن تحول الأمر من مجرد الأمن والحماية إلى الخضوع الحتمي والنهاية، لــيس للأم أو المرأة فحسب، بل لسائر أفراد الأسرة، أو العشيرة، أو القبلية... "فالمدافــع"، و"المربــي"، و"الحامــي"، و"القائد"، تحول لديه "احترام"، و"طاعة" الأفراد له، ولآرائه، إلي حق "طبيعي"، حق "مقدس" لا يقبل المساس. وأضحى اللاجــئون له ولحكمته، المؤيدون والمنشدون بروعته.. يخشونه لا يحترمونه؛ إيثارًا للسلامة، وخوفًا من الندامة، استكانة واتكالًا على وجود قوة عظمي، منبع لا ينضب من.....!!

## ٣. جوهر التسلط

بفضل **الطمع** الإنساني، والرغبة في **الامتلاك** والانتشار، تم مد السياط والسطو على الجيران، لشاه، أو جاه، أو ينبوع مياه، أو..... . وأمسى أعزة قوم ما، أذلة لآخر، فظهرت روح التفاخر والانتصار، روح التعصب والتقليد والتبعية؛ فللعِزَّة لذة تضفي على الطاووس مَعَزَّة.

بل وأضحت فنون المؤامرات، وبث الخطط والتَّكتيكات، حكرًا معرفيًا على القبيلة -الأمة أو الدولة- المنتصرة، وسر أسرار الطاووس.

ومن ثم توارثت الأجيال روح التباهي والتمسك بالتقاليد والأعراف؛ لما لها من قوة ملموسة، بل والبحث عن الأنساب والأسلال القوية الرصينة، وإلا لن تسلم من العواقب الوخيمة؛ "فأبيك البصل وأمك الثوم، من أين تأتي لك الرائحة الطيبة يا عَيب الشَوَّن"(١).

فبمحاكاة "النموذج" الصالح -دائمًا أبدًا- يزداد هذا النموذج وجودًا وبهاءًا، يزداد استبدادًا.. ويطالب السَّرية بمزيد من التبعية، وتضحي المحاكاة سببًا ونتيجة مذرية؛ فعندما تكون مقاليد الأمور في يديه يزداد الحبور، ينتشي

---

(١). شعلان، إبراهيم: موسوعة الأمثلة الشعبية المصرية، دار المعارف، ط١، د. ت، القاهرة، رقم ٨٨٤.

وينتشر في سائر الأرجاء، ويصبح أعجوبة الأعاجيب، فيزداد التقليد..... وهكذا دواليك.

ومن هنا كيف يتأتى للفرد أن يخرج من ربقة القطيع؟؟! كيف يتنفس من دونهم؟! والأحرى كيف يتخلص من ربقته الداخلية، بعد أن صارت جزءًا من حقيقته الأزلية؟!!

فحينما يفعل المرء فعلاً ما ينبع من شخصه، ويخالف الجموع، فإنه يجد من يزدريه ويوصف فعله "**بالمشين**"، ويحاط دائمًا بنظرات الاشمئزاز، ويدرج في قائمة "الشواذ"[1].

وحتى مع ظهور الأديان السماوية وانتشار الوعي الديني، بصورته الأكثر تناسقًا وتنظيمًا للسلوكيات والعلاقات الإنسانية، لم يتم التخلص من سلطة المألوف والمعتاد، من النموذج والطاووس، بل ازدان الأمر وازداد سوءًا... من

(1). مل، جون ستيوارت: "إن الجمهور في تعرضه للشؤون الشخصية، قلما يفكر في أمر سوى شناعة الشذوذ عنه في الشعور أو في التصرف". عن الحرية، ترجمة: عبد الكريم أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة مكتبة الأسرة ٢٠٠٠، د. ط، صـ١٨٥.

أول الاستعاذة من قولي "أنا"[1]، إلى التقاليد والأعراف المتبعة في مظاهر الاحتفالات بالأعراس، والجنائز، ومواكب انتقال الآثار والتحف...

من اقتصار مقاليد "المعرفة" على "ولي"، أو "قديس"، أو "فقيه"، إلى الاستسلام، والعجز، وعدم المعرفة الحقة بسائر الأمور... فالأب والأم يدركان الصالح والطالح من الأمور- على الدوام- والأب أعلى درجة -بل درجات- لرجحان عقله، وقوة إرادته، واتزانه، وقدرته الفائقة على التمييز بين الخير والشر[2]. و"القديس" و"الفقيه" لديهما صكوك الغفران، وورد التوبة من الرحمن؛ فهما الأكثر انكبابًا على "النص" المقدس، والأكثر معرفة وخبرة بأمور السلف، فهما "خير خلف لخير سلف".

---

(1). عبد الفتاح إمام، إمام: "أنا يعني أنني استطعت إدراك ذاتي، وأنني قمت بتمييزها من غيرها من الأشياء والموجودات؛ ولهذا كان هذا القول مستحيلا على الحيوان..."، الديمقراطية والوعي السياسي، نهضة مصر للطباعة والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، القاهرة، صـ٩١.

(2). يعود ذلك المعتقد الشائع لقصة الخلق وسقوط آدم لإغواء حواء، فهي دائمًا رمز الغواية، والأهواء والانفعالات، والتهور، والسطحية، وهو دائمًا رمز الاتزان، والعقل، والرجحان، والعمق.. وهذا تناقض بيِّن؛ فكيف تتحكم الأهواء في العقل، إلا إذا كانت أهواء تتحكم في أهواء؟! أين الاتزان؟! أنظر في ذلك: إمام عبد الفتاح إمام، الفيلسوف المسيحي والمرأة، مكتبة مدبولي طبـ١، ١٩٩٦، القاهرة، صـ١٧١ وما قبلها.

## ٤. جوهر الرضوخ

قد يعود هذا الوضع إلى "**رغبة**" في: الامتلاك[١]، أو المجد، أو الحفاظ على الأوضاع[٢] أو... . وقد يعود أيضًا إلى "**الخوف**" من العقاب: من بتر، أو رجم، أو نبذ، أو سجن، أو اعتقال، أو نفي، أو.... أو الخوف من "**الاتهام**": بالجنون، أو الارتداد، أو التحريف، أو الإلحاد والعيب في الذات الإلهية[*].

فالطامة الكبرى أننا جميعًا مسئولون، فإذا طالبنا جدلاً بمحاكمة المتهم، سيكون نحن وأولنا القاضي!! نعم، فنحن لدينا استعداد "نفسي" و"فكري" لرفض كل ما لا يقع في دائرة معارفنا، والعمل على الرضا، والاستكانة، والاكتفاء، والاقتناع بصحة وسلامة الأمور... فالباب الذي يأتي لك منه الريح، سده

---

(١). عبد الفتاح إمام، إمام: "أصبحت نفسي عليلة، وامتلئت بالقروح، ومن يأسها انطرحت أمام الرجاسات لتدهسها، ولو لم تكن لهذه الرجاسات روح لما كانت تُحب. لذا، أعجبني أن أُحِب، وأن أُحَب.. ولكن ما أمتعني أكثر هو أن أمتلك من أحببته بقدر ما استطعت" الفيلسوف المسيحي والمرأة، مرجع سابق، صـ ٤٠

(٢). ابن قتيبة: في عهد معاوية ذهب يبرر البيعة لابنه يزيد قائلاً: "**إني كرهت أن أدع أمة محمد بعدي كالضأن لا راعي لها**"، الإمامة والسياسة، تحقيق طه الزيني، مكتبة الحلبي، القاهرة، طبـ١، ١٩٦٧، صـ١٥٨.

(*). غني عن الذكر ما حدث مؤخرًا للشاعر والأديب **حلمي سالم**، وعلى الرغم من فوزه بجائزة الدولة في الآداب، إلا أنه مازال يعاني من القمع، وحجب قصيدته.. وعجبي!!

واســـتريح. وإذا كـــان الكلام من فِضة فالسكوت من ذهب، واللي يفكر يتعكر، وحد يقول للغولة إنتي عينك حمراء..... وهلم جرا.

## ٥. علاج حواري

الأمـــر إذن يحتاج **"للتفريغ"**؛ حتى يتسنى لنا "رؤيتنا"، وهذا لن يتأتى -من وجهة نظري- إلا بـــ:

- أن يـــبدأ كـــل مـــنا بنفسه، دون انتظار دعم خارجي، دون انتظار **"معجزة"**..
- أن يـــتم التوعـــية المـــسئولة، والمحملة بشتى أنواع المعارف، دون حجب أو مراوغة، دون انتقاص أو إسقاط، وذلك عن طريق سائر وسائل الإعلام.
- أن تـــتم تنـــشئة الأجـــيال على الثقة بالذات، والمعرفة بأساليب النقد الفكري وممارسته، وبث روح النشاط، والتجربة، والسبق، وتكوين رؤية، على الاستقلال والانفتاح الفكري، والاحترام المتبادل[١].

---

(١). راســـل، برتراند: "عندما تصبح الحضارة الجديدة ثابتة النمط، وعندما تكون الحكومة قد ملكت من الوقت ما يسمح بتدعيم سطوتها، وعندما تكون العادات والتقاليد والقانـــون قـــد أرســـت قـــواعد دقيقة بدرجة تكفي لكبت روح المغامرة، فإن الحـــضارة المعنـــية تـــدخل في مرحلة ركود، ويمتدح الرجال مآثر أسلافهم،

والحـــركة "دائرية"، تبدأ من الشخص ثم توعيته للمحيط، ثم توعية المحيط لـــه... وهكـــذا. وكل مسئول عليه واجبات وله حقوق.. وأول هذه الواجبات توفيـــر: "الأمـــن، والعدالة، والصيانة". فالأب -مثلاً- عليه توفير **الأمن**: أي الاطمئنان داخل بيته، دون ترغيب أو ترهيب، عليه زرع نبتته بسماد الحرية، والصراحة، والاحترام، والثقة بالذات... عليه أن **يعدل**: أي يساوي ويعطي كل ذي حـــق حقـــه، أن يقوِّم النبتة ويسويها... عليه أن **يصون**: نفسه ونبتته من **الجفاف** الفكري والمعنوي، بالتعدد الثقافي، وإخراج النبتة للشمس والهواء..

فالنوافذ صنعت كي نُطل منها على الجانب الآخر، كي **تفتح** فيتسرب النسيم وأشعة الشمس الساطعة إلى الداخل، ونتنفس الهواء العليل... وتغلق أمام الرياح الزَّمهَريـــر، وكثرة الأعاصير.. **لا** أن تغلق على الدوام، فيسود **الظلام**، وينتشر العفن والفساد.

## ٦. خاتمة

حقًـــا إن جـــذور التربية مريرة، لكن ثمارها حلوة... فما بالك بالتغيير؟؟! فمـــشكلاتنا الاجتماعـــية المعاصـــرة، من **عادة** تعاطي الدروس الخصوصية،

---

ولكنهم لا يستطيعون مجاراتهم حاليًا، ويصير الفن **تقليديًا**، **وتختنق** العلوم..". الـــسلطة والفـــرد، ترجمة: د. لطيفة عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، د.ط، صـــ٤١.

وانتشار البطالة، والافتاءات المدوية، والصراع على الكراسي الموسيقية، إلى "**تعجيز**" المرأة عن العمل والوجود الطبيعي الصحي، بوهم واجباتها المنزلية – هي فقط– بل و"**السماح**" لها بتجربة العمل، في حين أنه من أبسط حقوقها... تلك المشكلات وغيرها، تحتاج إلى تغيير ثقافتنا مِن "مَن علمني حرفًا صرت له عبدًا، إلى من علمني حرفًا صرت له ندًا، مساندًا، درعًا... من سد الباب واسترح، إلى وجوب فتح نوافذ البيت، كي تهب عليه رياح كل الثقافات، شريطة أن لا تقلعه من جذوره... من التلقين، والتدشين، والتغليف، والتعتيم، إلي التروي، والتفهم، والتفتيح،.... إلى التساؤل عن معنى الحياة، وكيف نجيب عنه؟!